تنويع الحكم التصويري
في النقد العربي القديم

د . حسن البنداري *

ضمت بعض مصادر الأدب العربي القديم جزءا هاماً من التراث النقدي ، تمثل في أحكام نقدية متميزة ، تناول بها أصحابها عدداً من القصائد ، وطائفة من الشعراء بصيغ وصفية وتصويرية ، عكست خصائص في القصيدة ، وسمات في شعر الشاعر ، قد اتخذت هذه الاحكام اتجاهين متمايزين :

الاتجاه الأول : يتعين فيه الحكم النقدي في « كلمة أو جملة موجزة » ، تصف وتصور القصيدة أو الشاعر ، فبالنسبة للقصيدة نجد غير حكم تصويري لها في أقوال البصراء بالشعر والنقاد الذين تصدوا لنقدها : فعن حماد الراوية : أن العرب كانت

---

* استاذ النقد الأدبي والبلاغه المساعد بكلية البنات جامعة عين شمس والمعار حالياً إلي كلية الإنسانيات جامعة قطر .

«تعرض أشعارهم علي قريش فما قبلوه منها كان مقبولا ، و ما ردوه منها كان مردودا ، فقدم عليهم علقمه بن عبدة ، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها [١] .

هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها إن نأتك اليوم مصروم

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم :

طحا بك قلب في الحسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا هاتان سمطا الدهر [٢] . فيتبين من هذه الراويه ، أن وصف القرشيين - وهم من أكثر القبائل فصاحة ووعياً بالعربية - لهاتين القصيدتين بأنها « سمطا الدهر » - هو حكم لهما بالجودة والتميز والتفرد وسط القصائد الأخري التي كانت تعرض عليهم .

وإذا تأملنا هذا الوصف « سمط » مرة أخري في ضوء المعاجم العربية ، لظهر لنا أن «السمط» هو : « الخيط المنظوم ما دام فيه الخرز » ، وهو « القلاده التي تعلق في جيد المرأه » [٣] . ومن ثم فإن القرشيين عنوا بهذا الوصف أن كلا من القصيدتين يماثل « القلاده » التي لا تكون إلا من غال نفيس يعلق في جيد المرأه ، وبما أن «القلاده» من أكثر الحلي ظهوراً عند النساء ، لكون العنق بارزاً للمشاهد - فإن قصيدتي علقمه قد تميزتا بالجمال الفني الذي جعلهما بارزتين عن القصائد التي تجري مجراهما ، وتطرق معانيهما ، وتتجه اتجاهما . ولعل إحساس القرشيين بالقيمة الفنية لهاتين القصيدتين ، وتوقعهم استمرار تميزهما ، قد دفعهم إلي إضافة « السمط » إلي الدهر . فقالوا : «سمط الدهر » و « سمطا الدهر » ، كما رأينا .

---

(١) ديوانه : المطبعه المحموديه بمصر : ١٣٥٣ هـ ص ١٥

(٢) أبو الفرج الأصفهاني ، الهيئه المصريه العامه للكتاب ، ١٩٧٣ ، ٢٠١/٢١

(٣) الزمخشري : أساس البلاغة ، دار التنوير العربي - بيروت ط (٤) ١٩٨٤ ، ص ٢١٩ ، وابن منظور : لسان العرب - دار لسان العرب - بيروت ١٩٧٤ مجلد ٢ ص ٢٠١

وقد روي أبو عمر الشيباني (٢٠٦ أو ٢١٠ هـ) أن عمرو بن الحارث الأعرج الغساني ، أعجب بقصيدة حسان بن ثابت ، التي مدحه بها ، والتي منها [١] .

لله در عصابة نادمتهم   يوما بجلق في الزمان الأول

ووصفها قائلاً « هذه والله البتارة التي بترت المدائح » [٢] : فمعني صيغة «البتارة » أن هذه القصيدة قد قطعت وبترت أية قصيدة مدح ، حاول فيها صاحبها أن يربط صلته بالممدوح ، أو يمد أسبابه إليه . وهذا المعني يتوافق مع المعني المعجمي اللغوي الذي هو « استئصال الشيء ، والقطع » .

وتنسجم مع المعني المجازي ، وهو : « قاطع رحم ، والسيف القاطع » [٣]. فكأن هذه القصيدة الموصوفة بالبتارة ، سيف قاطع استأصل كل أثر قد تحدثه أية قصيدة مدح أخري .ويدخل في هذا الإتجاه أيضاً : وصف الأصمعي - في رواية ابن قتيبة - لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري التي مطلعها [٤] .

بسطت رابعة الحبل لنا   فمددنا الحبل منها ما اتسع

فقد قال : « كانت العرب تفضلها ، وتقدمها ، وتعدها من حكمها ، وكانت في الجاهلية تسميها «اليتيمة » لما اشتملت عليه من الأمثال » [٥] . ويقصد الأصمعي بهذه الروايه أن « وصف اليتيمة » مستمد من الفهم العربي لهذه الصيغة ، إذ أن

(١) ديوانه : تحقيق د / سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ط (٢) ١٩٨٣ ص ١٢٢ .

(٢) الأغاني : ٥٤٦١/١٥ ، ٥٤٦٢ ، طبعة دار الشعب (مصر) ١٩٧٠ .

(٣) أساس البلاغة ص ٢٢٠ .

(٤) المفضل الضبي : المفضليات :تحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون- دار المعارف - ط (١٦) ص ٩١، وفيها فوصلنا الحبل منها ما اتسع، وينظر الأغاني - طبعة دار الشعب ١٦١٤/١٣

(٥)ابن قتيبة :الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر .دار التراث العربي ،ص(٣)١٩٦٧ ص٤٢٨

معناها هو : الانفراد والتفرد : « فكل منفرد ومنفردة عند العرب يتيم ويتيمة » على نحو ما يقول بذلك الأصمعي [١]. وهذا المعنى اللغوي المعجمي لها يتفق مع المعنى المجازي ، وهو أن القصيدة تشبه الدرة اليتيمة ، أي الثمينة النفيسة التي لا نظير لها [٢] . ولا شك أن حكم الأصمعي بتفرد هذه القصيدة وغياب نظيرها من القصائد ، قد خضع لعملية استقراء للقصائد الجارية مجراها ، بالإضافة إلى اعتماده على « ذوق شخصي مثقف » تدخل فيه ذوق جمهور المستمعين في ذلك العصر . وقد أتاح له ذلك الوقوف على ما اشتملت عليه القصيدة من « الأمثال والحكم » . ذلك أن القصيدة بهذين الأمرين قد كشفت عن امتلاكها للهدف الأخلاقي ، والتوجه الروحي والوعي بنفس الإنسان وأحوال البشر ، ويعزز ذلك قول سويد بن أبي كاهل في هذه القصيدة [٣] .

رب من أنضجت غيظا صدره	قد تمنى لي موتا ، لم يطع [٤]
ويراني كالشجا في حلقه	عسرا مخرجه ما ينتزع [٥]
مزبد يخطر ما لم يرني	فإذا أسمعته صوتي انقمع [٦]

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مجلد ١٠٠٤/٣

(٢) أساس البلاغة ص ٥١٢

(٣) الشعر والشعراء ص ٤٢٨

(٤) في المفضليات : [رب من أنضجت غيظا قلبه] .

(٥) الشجا : ما يعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٦) مزبد كالجمل الهائج إذا ظهر الزبد على مشافره ، وهو لغامه الأبيض . يخطر : من الخطر بسكون الطاء ، وهو ضرب الفحل بذنبه إذا هاج . انقمع : دخل بعضه في بعض . والمعنى : أنه يتعظم إذا لم يرني ، فإذا رأني تضاءل

قد كفاني الله ما في نفسه ومتى ما يكف شيئا لا يضع [١]

ويقول فيها أيضاً :

ودعتني برقاها ، إنها تنزع الأعصم من رأس اليفع [٢]

تسمع الحداث قولا حسنا لو أرادوا غيره ، لم يستطع [٣]

وقد تنبه محمد بن سلام الجمحي (٢٣١ هـ أو ٢٣٢ هـ) إلي قيمة هذه القصيدة وشعر صاحبها فجعله من فحول الطبقة السادسة بعد عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة بن شداد ، وقال في ذلك : « وله شعر كثير ، ولكن برزت هذه علي شعره » [٤] .

وعلي الرغم من أن قصيدة عنتر بن شداد العبسي التي مطلعها [٥] :

---

(١) في المفضليات (... لم يضع)

(٢) الرقي : جمع رقية . يريد أنها دعته برقاها فلم يجد له فكاكا . الأعصم : الوعل الذي في يديه بياض . اليفع : المرتفع كاليفاع

(٣) في المفضليات (... لم يستمع) . الحداث : الذين يحدثونها وتحدثهم . وهو جمع علي غير قياس حملا علي نظيره ، نحو سامر وسمار . لم يستطع : يريد أنهم لو التمسوا منها سوي الحديث لم ينالوه . يصف بذلك عفتها (هامش ص ١٩٢ ، ص ١٩٨ من المفضليات وهامش ص ٤٢٨ ، ص ٤٢٩ من الشعر والشعراء) .

(٤) ابن سلام الجمجمي : طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني . السفر الأول ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٥) أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . دار المعارف ص(٤) ١٩٨٠ ص ٢٩٤ .متردم : قال الأصمعي : يقال ردم ثوبك أي رقعة .ويقال :ثوب مردم أي مرقع . يقول : هل ترك الشعراد شيئا يرقع ؟ وإنما هو مثل . يقول : هل تركوا مقالا لقائل ، أي فن من الشعر لم يسلكوه .

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

- كانت أول قصيدة قالها ، لكن الناقد العربي القديم ، قد تنبه إليها ، فوصفها بوصف « المذهبة » علي نحو ما بين ابن قتيبة بقوله : « فكان أول ما قال : قصيدة (هل غادر الشعراء من متردم) ، وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها « المذهبة »[1] وقد أتي القدماء بهذا الوصف نتيجة استقرائهم كافة أو أغلب قصائد وصف الشعراء لذواتهم ولبيئاتهم التي عاشوا فيها حتي يكون الوصف نافذاً قاطعاً لا يرده أحد ، ومبيناً القيمة الجمالية لتلك القصيدة . وهي قيمة تتوافق مع المعني المعجمي لصيغة « المذهبة » - بضم الميم وفتح الهاء - وهو كما يقول صاحب اللسان « الشيء المطلي بالذهب » وقد سجله الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة في قوله [2] :

أو مذهب جدد ، علي ألواحه   الناطق المبروز او المختوم

ومن ثم فإن هذا الوصف يدل علي « قوة تأثير » القصيدة في جمهور المستمعين أو المتلقين لها ، فتفاعلوا مع قوة معانيها وجمال صياغتها .

وقد أطلق القدماء وصف « المعلقة » علي القصائد التي اتفقوا علي اختيارها وتعليقها بالكعبة ،
إعجاباً بها ، واعتقادا في قيمتها الفنيه . وهي سبع عند بعض العلماء [3] وعشر عند الآخر [4] . ذلك أنهم منحوا هذا الوصف :

---

(١) الشعر والشعراد ص ٢٥٨

(٢) لسان العرب ١/١٠٨٢

(٣) ومنهم : الزوزني في كتابه : المعلقات السبع . دار الجيل - بيروت ١٩٧٢ ، والأنباري في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات .

(٤) منهم الخطيب التبريزي في كتابه (المعلقات العشر) تحقيق محمد محيي عبد الحميد ط (١) صبيح ١٩٦٢ .

- لقصيدة : امريء القيس التي مطلعها (قفانبك من ذكري حبيب ومنزل » .
- وقصيدة : طرفه بن العبد التي مطلعها « لخولة أطلال ببرقة ثهمد » ..
- وقصيدة : زهير بن أبي سلمي التي مطلعها « أمن ام أوفي دمنة لم تكلم
- وقصيدة : عنتره بن شداد التي مطلعها « هل غادر الشعراء من متردم » .
- وقصيدة : الحارث بن حلزة التي مطلعها « آذنتنا ببينها أسماء » ،
- وقصيدة : لبيد بن ربيعة التي مطلعها « عفت الديار محلها فمقامها » ،
- وقصيدة : الأعشي التي مطلعها « ودع هريرة إن الركب مرتحل » [١] ،
- وقصيدة : النابغة الذبياني التي مطلعها « يا دار ميه بالعلياء فالسند » ،
- وقصيدة : عبيد بن الابرص التي مطلعها « اقفر من أهله ملحوب » .

ومن البين أن اطلاقهم هذا الوصف ، يعني أن ثمة حكماً نقدياً وجهه الذين قاموا « بالاختيار والتعليق » قد تناول كل قصيدة من هذه القصـــائد ، ذلك أن علمهم هذا « اختيارلقصائد بعينها ، وحكم ضمني بجودتها وتفضيلها علي سواها [٢] » .

فعملية الاختيار تدل علي ما في هذه القصائد من خصائص فنيه انفردت بها وتميزت علي غيرها من القصائد ، كما تدل من جهة أخري علي « صلتها بالحياة الاجتماعية ، أو حسن تصويرها لتلك الحياة » [٣] .

ولهذا وذاك اختارها العرب وسموها « المعلقات » .

---

(١) زاد الخطيب التبريزي في كتابه (المعلقات العشر) علي ما ذكره من قبل كل من الزوزني ، والأنباري ، القصائد الثلاث الأخيرة . وهي للأعشي ، والنابغة ، وعبيد بن الأبرص ، كما نري

(٢) طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد عند العرب - دار الحكمة - بيروت ص ٢٢

(٣) السابق ص ٢٣

وكان العرب - كما يذكر ابن رشيق - يسمونها « المذهبات » لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت علي الكعبة ، فلذلك يقال : مذهبة فلان ، إذا كانت أجود شعره ذكر ذلك غير واحد من العلماء » .

ويؤيد البغدادي قيمة المعلقات باعتبارها وصفا يمثل حكما ضمنيا ينتصر للقصيدة فيقول : « ومعني المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية ، يقول الرجل منهم الشعر في أقصي الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتي يأتي موسم الحج ، فيعرضه علي أندية قريش ، فإن استحسنوه روي وكان فخرا لقائله وعلق علي ركن من أركان الكعبة حتي ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به . وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس ، وبعده علقت الشعراء » [1] .

ولكن ابن خلدون (- ٨٠٨ هـ) عمد إلي التقليل من القيمة الفنية لتلك القصائد ، ذلك أنه رأي أن أهميتها لا ترجع إلي تقاليد الفن الشعري ومبادئه ، بل إلي أمر خارج عن ذلك ، لأنه - كما ذكر - «إنما يتوصـــل إلي تعليـــق الشعر بها [2].من كان له قدرة علي ذلك بقومه ،وعصبيته ومكانه في مضر» [3] .

---

(١) ابن رشيق :العمدة :تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل- بيروت ط(٤) ١٩٧٤

(٢) البغدادي : خزانة الادب طبعة بولاق ، ١٢٩٩ هـ ، ١ / ١٦١ .

(٣) الضمير يعود الي الكعبة ، أو البيت الحرام ، فنص المقدمة « حتي انتهوا الي المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم ، وبيت ابراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمي ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعقلمة بن عبدة ، والأعشي ، من أصحاب المعلقات السبع وغيرهم .. » (ص ٥٤٧) من المقدمة .

(٤) ابن خلدون : المقدمة . طبعة دار الشعب بمصر ص ٥٤٧ .

١٧٨

ومن المؤكد أن التسليم برأي ابن خلدون يعد قبولاً بالطعن في « الذوق العربي » السائد في تلك الفترة ، كما يعتبر موافقة علي تأسيس إختيار القدماء علي المجاملة لهذا الشاعر أو ذاك ، ونفياً لما أثبته تاريخ النقد العربي لأولئك المحكمين من أنهم كانوا « قضاة » في أحكامهم المبنيه علي « دقة التمييز » التي أقرها ابن خلدون نفسه ، في ذات موضع الهجوم علي تلك القصائد والتقليل من قيمتها الفنية ، ذلك أنه قال : « اعلم الشعر كان ديواناً للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم ، وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته علي فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله »[١] .

فعرض تلك القصائد وغيرها علي فحول الشأن وأهل البصر - كما يقول ابن خلدون - يسقط عن أولئك المحكمين القدماء تهمه المجامله : التي تثبتها عبارته عليهم ، بل إن هذا العرض كان في صالح المحكمين ، الذين اعتمدوا في نظراتهم إلي تلك القصائد - علي « ذوق مثقف » مزود بالخبرة والدربة والراوية ، ويمتلك ملكه « التمييز » التي تميز بين قصيدة وأخري ، وبين شاعر وشاعر ، وبين نتاج شعري ونتاج شعري مقابل . و « فحول الشأن وأهل البصر » هم أولئك المحكمون الذين شهروا بتلك الملكه الناقده .

كما أطلقوا وصف « المنصفه »[٢] علي قصيده خداش بن زهير بن ربيعه التي يقول فيها :

فأبلغ ، إن عرضت بنا هشاماً   وعبدالله أبلغ والوليــــدا [٣] .

---

(١) السابق ص ٥٤٧ ، لتمييز حوله : اختبار مقدرته .

(٢) طبقات فحول الشعراد ص ١٤٥

(٣) عرضت : أتيت العروض ، وهي مكة والمدينة وما حولها أو أعراض المدينة وقراها .

أولئك إن يكن في الناس خير ... فإن لديهم حسباً وجودا

هم خير المعاشر من قريش ... وأوراها إذا قدحت زنودا (١)

بأنا يوم شمطة قد أقمنا ... عمود المجد ، إن له عمودا (٢)

فجاؤونا عارضا بردا وجئنا ... كما أضرمت في الغاب الوقودا (٣)

فعانقنا الكماة وعانقونا ... عراك النّمر واجهت الأسودا (٤)

فلم أر مثلهم هزموا وفلوا ... ولا كذيادنا عنقا مجودا (٥)

- لأنها اشتملت علي قيمة إنسانية هي « المفارقة » حيث إنه قد عمد إلي مدح أعدائه ، وهذا أمر فريد لم يألفه العرب ولا غير العرب ، يدل علي موضوعية الشاعر وسعة صدره ، أمام تسجيل الحقائق التي يسجلها قبله التاريخ .

وأما الحكم الوصفي علي الشاعر بكلمة أو جملة موجزة فنراه في أوصاف عديدة أطلقها النقاد علي عدد من الشعراء منها : المهلهل ، والفحل ، والمحبر ، والنابغة ، وصناجة العرب ، وغير ذلك من الأوصاف التي وإن كان يصف بها متذوقو الشعر هؤلاء الشعراء ، لكنها تتصلِ بكل الإنتاج الشعري لهم لإنها تمثل أحكاما علي مدي

(١) الزنود : جمع زند : ما تستقدح به النار .

(٢) شمطة : مكان من مواقع حروب الفجار .

(٣) فجاؤونا : يعني قريشاً . العارض : السحاب يعترض في أفق السماد حتي يسده ، البرد : ذو البرد الشديد . أو الذي يرمي بالبرد . يذكر كثرتهم التي سدت الأفق . ويصف بأسهم الذي لا يتقي ولايرد .

(٤) الكماة : جمع كمي : الشجاع الذي لا يحيد عن قرنه ولا يهاب . والنمر : جمع نمر

(٥) فل الجيش : كسرهم فانقلبوا منهزمين متفرقين . والفل : المنهزمون . وذاد الشيء عن نفسه زيادا : دفعه ورده . عنقا مجودا : الإبل أجهدها العطش . يقول ذدناهم كما تزاد الإبل العطاش عن الماء (هامش ص ١٤٦ ، ١٤٧ من الطبقات) .

شاعريتهم وأصالتهم ، وتتضمن حقائق فنيه ينطوي عليها فنهم الشعري .

فقد وصف القدماء عدي بن ربيعة بـ « المهلهل » وشهر بهذا الوصف في جميع العصور الأدبية ، والظاهر من هذا الوصف أن القدماء قد أرادوا به كما فسر الأصمعي (- ٢٠٧ هـ) ، أن هذا الشاعر « كان يهلهل الشعر ، أي يرققه ولا يحكمه » (١).

وكما قال ابن الأعرابي (-٢٣١ هـ) : « المهلهل مأخوذ من الهلهلة ، وهي رقة نسج الثوب ، والمهلهل المرقق للشعر ، وإنما سمي مهلهلا ، لأنه أول من رقق الشعر وجنب الكلام الغريب الوحشي »(٢) .

فهذان التفسيران يفيدان أن ثمة حقيقتين ينطوي عليهما شعر مهلهل بن ربيعة : الحقيقة الأولي هي : رقة مفرداته وتراكيبه وسهولتها ، ويؤيد ذلك قول ابن قتيبة (- ٢٧٦ هـ) : « وسمي مهلهلا ، لأنه هلهل الشعر ، أي أرقه ، وكان فيه خنث » (٢) ، وقول أبي الفرج الأصفهاني (- ٣٤٦ هـ) : « وإنما لقب مهلهلا لطيب شعره ورقته ، وكان أحد من غني من العرب في شعره » (٣) ، وقول ابن دريد (٣٣٦- هـ) : « مهلهل من قولهم ثوب هلهال إذا كان رقيقاً » (٤)، وقول ابن رشيق (-٤٥٦ هـ) : « وإنما سمي مههلا لهلهلة شعره أي رقته وخفته » (٥) ، وقول الزمخشري (-٥٣٨ هـ) : « هلهل الشعر أي أرقه » (٦) ، وقول ابن منظور (- ٦٣٠ هـ) :

---

(١) المرزباني : الموشح في مأخذ العلماء علي الشعراد . تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي - القاهرة ص ٩٤ .

(٢) الشعر والشعراد ص ٣٠٣

(٣) الأغاني طبعة دار الشعب ١٠٨/١٣

(٤) الاشتقاق : ابن الردريد . تحقيق عبد السلام هارون ١٣٧٨ ص ٥٦

(٥) العمدة ١ / ٨٦

(٦) أساس البلاغة : ص ٤٨٧

« مهلهل : لأنه أول من أرق الشعر » [١]

فهذه الأقوال - كما نري - قد اتفقت علي اشتمال شعر عدي بن ربيعة علي خاصية « الرقة » ، المقصود بها السهولة واليسر في صياغة المعاني ، وقد جعلت هذه الخاصية مهلهلا يغني في شعره ، علي نحو ما أشار إلي ذلك كل من أبي الفرج بقوله : « وكان أحد من غني من العرب في شعره » ، وابن قتيبة بقوله :« وكان فيه خنث » - كما مر . والحقيقة الثانية هي : « تفكك نسيج شعره وعدم إحكام أبياته » أو افتقاد شعره للقوة التي تربط وحداته المعنوية واللفظية ، والتي يترتب عليها غياب ما يسمي بالانسجام بين أبيات الشعر .

ويعزز هذا إرجاع ابن سلام سبب التسميه إلي « هلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه » [٢]، ويقرب من هذا التحديد ما ذكره الزمخشري : « هلهل النساج الثوب ، أو ثوب هلهل : سخيف النسج » [٣]، وتفسير ابن رشيق بأن الهلهلة تعني اختلاف شعره وتفاوته [٤].

وقد أطلق القدماء وصف « الفحولة » علي عدد من الشعراء ، علي أساس أن هذا الوصف يمثل حقيقه أو خاصية . ومن بين الشعراء الذين وصفوا بالفحولة : الشاعر الجاهلي علقمة بن عبدة ، لأنه تفوق علي امرئ القيس في موقف المماتنة الذي حكما فيه أم جندب زوجة امريء القيس ، وذلك بقصيدته البائية التي مطلعها [٥] .

(١) لسان العرب ١/١١٨٢٣

(٢) طبقات فحول الشعراد ص ٣٩

(٣) أساس البلاغة ص ٤٨٧

(٤) العمدة ٨٦/١

(٥) ديوانه : المطبعة المحمودية بمصر ١٣٥٣ هـ ص ٧ ، والمطبعة الأهلية - بيروت ص ٥ وطبقات فحول الشعراء ص ١٣٩

ذهبت من الهجران في كل مذهب　　　ولم يك حقـا كل هـذا التجنب

في مقابل قصيدة امرئ القيس التي مطلعها [1]

خليلي مرابـي علي أم جنـدب　　　نقض لبانات الفـؤاد المعـذب

وذلك لما تميزت به بعض مـواضع تلك القصـيدة من « معـادلة الواقع » ، ومن كثـرة المعاني ، وقوة العاطفة ، وجزالة الأداء .

وربما تبادر إلي الذهن عنصر « القوة » بمجرد الاستماع إلي هذا الوصف ، من جهة أن « الفحل » جملا كان أو فرسا يتميز بما يناقض صفة « اللين » ، والشاعر بصفة الفحولة أي القوة يتفوق علي من عداه من الشعراء ، علي أساس أن للفحل « مزية عن غيره كمزية الفحل علي الحقاق » [2] ، ولكن الأصمعي يقدم المزيد من معـاني هذا الوصف عندما عرض لبعض الشعـراء الفحول وغير الفحـول ، في كتـابة « فحـولة الشعراء » ، فقد ذكر أن طفيلاً الغنوي « غاية في النعت (الوصف) ، وهو فحل » ثم أنشد له :

يراد علي فأس اللجام كأنما　　　يراد به مرقاة جذع مشذب

وقال : « وهو جيد الصفة للخيل » [3] ، وأن « كعب بن سعد الغنوي ليس من الفحـول إلا في المرثيـة ، فإنه ليس في الدنيا مثلها » [4] ، وأن « الحـويدرة لو قـال «مثل قصيدته خمس قصائد - كان فحلا » [5] ، وأن ثعلبة بن صغير المازني لـو قال

(١) ديوانه : تحقيق : ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف ص (٤) ٣٩٨٤ ص ٣٩

(٢) الموشح ص ٦٢

(٣) الزصمعي:فحولة الشعراء ، تحقيق تشارلس توري - دار الكتاب الجديد/لبنان،١٩٧١ص١٠ (٣) السابق ص ١٢ ، والموشح ص ١٠٦

(٤) فحولة الشعراء ص ١٢ والموشح ص ١٠٦

(٥) فحولة الشعراء ص ١٢

« مثل قصيدته خمس قصائد - كان فحلا » وأن المهلهل « لو قال مثل قوله :

أليلتنا بذي حسم انيري (إذ أنت انقيت فلا تحوري)

«خمس قصائد ، لكان أفحلهم » [1] ، وأن لبيد بن ربيعة ليس بفحل ، فشعره «كأنه طيلسان طبري » [2] . فالأصمعي كما هو ظاهر من أحكامه ، لا يقصر عنصر « القوة » فقط علي وصف « الفحل » ولكن يضيف إلي ذلك عناصر أخري هي : دقة الوصف ، وبراعة المعني ، وكثرة النتاج الشعري ، وجودة سبك القصيدة وإحكامها .

ولكن الأصمعي يضيف عنصراً آخر إلي تلك العناصر وهو « غلبة صفة الشعر علي أية صفات أخري للمرء : فعندما سأله أبو حاتم السجستاني عن « حاتم الطائي » قال : حاتم إنما يعد في من يكرم » [3] - ولم يطلق وصف الفحل ، ولما سأله عن كل من : خفاف بن ندبة ، وعنترة ، والزبرقان ، وزيد الخيل الطائي ، قال : « هؤلاء أشعر الفرسان » [4] ويقصد بذلك أن رجلا مثل حاتم قد يقول قصائد ، ولكنه يعد في الأجواد ، ولا يسمي فحلا ، لأن الشعر لا يغلب عليه ، وكذلك الشعراء الفرسان لأنهم فرسان يقولون شعراً وحسب » [5] .

ويعمد ابن رشيق إلي لفت أنظار الشعراء إلي طريق « الفحولة » أو توجيههم نحو الأسباب التي قد تجعلهم من الشعراد الفحول . قال « لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتي يروي أشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعاني ، وتدور في

---

(١) الموشح ص ٩٤ : ذو حُسَم [بضم ثم فتح] موضع

(٢) فحولة الشعراد ص ١٥

(٣) السابق ص ١٤

(٤) السابق ص ١٤

(٥) د / احسان عباس . تاريخ النقد الأدبي عند العرب .دار الثقافة طبعة ١٩٧٨ ،ص ٥٢

مسامعه الألفاظ ، وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزانا له على قوله ، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم إعرابه ، والنسب وأيام الناس ، ليستعين بذلك علي معرفة المناقب والمثالب ، وذكرها «بمدح أو ذم » (١) . وما ذكره في هذا النص ليس إلا عناصر تثقيف تتضاف إلي ما عرض إليه . وكل ذلك يدخل في مفهوم وصف «الفحل » الذي أطلقه البصراء بالشعر علي تلك المجموعة - وغيرها - من الشعراء الجاهلين والإسلاميين .

وثمة أوصاف أخري غير هذين الوصفين وصف بها عدد من الشعراء ،تمضي في ذات الاتجاه وهو : الدلالة علي خصائص فنية في أشعارهم . فقد وصف القدماء الشاعر الجاهلي طفيل بن كعب الغنوي بـ « المحبر » ، دليلا علي « حسن شعره وجودته » (٢) ، إذ كان من أوصف الناس للخيل ، وأكثرهم إحاطة بأحوالها ، علي نحو ما جاء في قوله عبد الملك بن مروان : « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل » (٣) ، ولشدة اتصاله بعالم الخيل سماه بعض النقاد : « طفيل الخيل » (٨) . وقد حكم بجودة شعره أيضا - غير ما سبق - متذوقوا الشعر مثل معاويه بن أبي سفيان فقد كان يعتبر طفيلا شاعره المفضل علي سائر الشعراء وذلك في قوله « دعوا لي طفيلا وسائر الشعراء لكم » (٤) .

كما وصفوا الشاعر الجاهلي زياد بن معاوية بـ « النابغة » لأنه « نبغ بالشعر بعدما احتنك ، وهلك قبل أن يهتر » (٥) ، ولأنه كان أحسن الشعراء « ديباجة شعر ،

---

(١) العمدة ١/٩٦ وتاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٥٣

(٢) الشعر والشعراء ص ٤٦٠.

(٣) الأمدي : المؤتلف والمختلف . تحقيق عبد الستار فراج طبعة ، عيسي الطبي ١٩٦١ص ١٤٧

(٤) الشعر والشعراء ص ٤٦٠ .

(٥) السابق ص ١٦٣ .

وأكثرهم رونقا ، وأجزلهم بيتا ، كان شعره كلاما ليس فيه تكلف »[1] . أي أن الوصف « بالنابغة » دل علي خصائص أسلوبية تتمثل في قوة الصياغة وبراعة الاستهلال ، وإحكام الأبيات ، وخصائص معنوية تتعين في عفوية التعبير وصدق المعني ويسر استخدامه في النسيج الشعري .

وفي هذا الإطار وصفوا الأعشي « ميمون بن قيس » - وهو جاهلي - بـ « صناجة العرب » لأنه « أول من ذكر الصنج في شعره » فقال[2] :

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه إذا تُرجِّع فيه القينة الفُضُلُ

حيث « شبه العود بالصنج » كما بين ابن قتيبة ، قاصدا بذلك الحكم له بالتميز في هذه القصيدة وفي ما يماثلها ويجري مجراها من القصائد ، لأنه قد ضمن شعره هذا التشبيه الذي لم يسبقه إليه شاعر قبله ، ولأنه قد استخدم في بعض شعره عددا من آلات الطرب والملاهي ، التي عرفها خلال وفوده علي ملوك فارس[3] وذلك في قوله[4] :

فلأشربن ثمانيا وثمانيا وثمان عشرة واثنتين وأربعا

من قهوة باتت بفارس صفوة تدع الفتي ملكا يميل مصرعا

بالجلسان وطيب أردانه بالون يضرب لي بكر الإصبعا

والناي نرم وبربط ذي بحة والصنج يبكي شجوه أن يوضعا[5]

---

(١) السابق ص ١٦٣ .

(٢) ديوانه : تحقيق / مهدي محمد ناصر الدين - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧ ص ١٣٣

(٣) الشعر والشعراء ص ٢٦٤ .

(٤) السابق ص ٢٦٤

(٥) الجلسان : الورد الأبيض أو قبة ينثر فيها الورد والريحان . الون : العزف أو العود . الناي نرم والبربط ، والصنج : من آلات الملاهي .

إرن كـان كل من ابن رشـيق [1] ، والبـغـدادي [2] ، قد أرجعا تسميته بصناجة العرب إلي جودة شعره ، قاصدين بذلك أن نتاجه الشعري قابل للتغني به ، لما يمتلكه من إمكانات الإيقاع والطرب وقوة التأثير اللفظية والمعنوية ، وفي ذلك يقول ابن رشيق إنه « سمي صناجـة لقـوة طبعه ، وحلية شعره . يخيل لك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك » [3] .

وأما الاتجاه الثاني فإن الحكم النقدي فيه يعني بتقويم كل من القصيدة والشاعر بأسلوب يمكن أن نسميه (المقابله التصويرية) ، التي يعمد فيها الناقد إلي تصوير وتمثيل ما في الشعر وما لدي الشعراء من عيوب ، أو من خصائص فنية معنوية ، أو لفظية ، وذلك بعبارة قصيرة أو عبارة مطولة .

فمن الأحكام النقدية القصيرة التي تصور بعض الشعراء - عبارة أبي عمرو بن العـلاء ، التي يتناول بهـا عـدي بن زيد العبـادي . فـقـد قـال : « عـدي بن زيد في الشعراء ، مثل سهيل في الكواكب ، يعارضها ولا يجري مجراها » [4] ، وفي رواية أخري « مثل سهيل في النجوم .... » [5] فقد أراد بهذا الحكم التصويري ، أن عدي بن زيد يحتل منزلة متميزة بين الشعراء الجيدين ، ولكن هذه المنزلة دون منزلة الشعراد الفحول ، من جهة أنه لا يستطيع مجاراتهم في فنهم الشعري ، وأدائهم اللغوي ، حيث يقعد به عن بلوغ مستواهم الشعري ، عامل الاتصال المباشر بالحياة المدينية . ومن ثم كانت « ألفاظه الحيرية ليست بنجدية » [6] ، علي نحو ما بين ذلك أبو بكر الصولي

---

(١) العمدة : ١ / ٣١

(٢) البغدادي : خزانة الأدب . بولاق ١٢٩٩ هـ - ٢ / ٢٨٨ (٣) العمدة ١/١٣١

(٤) الموشح ص ٩١ (٥) السابق ص ٩١

(٦) السابق ص ٩١

وقد وجه النقاد القدامي مثل هذا الحكم التصويري القصير إلي أشعار بعض الشعراء ، ذلك أن أبا عمرو بن العلاء عرض لشعر ذي الرمة قائلاً :

« إنما شعر ذي الرمة نقط عروس ، تضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء ، لها مشم في أول شمها ، ثم تعود إلي أرواح البعر » [1] .

ويضيف الأصمعي إلي هذا القول ، إضافة توضيحية فيقول : « إن شعر ذي الرمة حلو أول ما نسمعه ، فإذا كثر إنشاده ضعف ، ولم يكن له حسن لأن أبعار الظباء أول ما تشم ، يوجد لها رائحة ما أكلت الظباء من الشيح والقيصوم ، والجثجات ، والنبت الطيب الريح ، فإذا أدمت شمه ، ذهبت الرائحة ، ونقط العروس إذا غسلتها ذهبت » [2] .

ويقرب من هذا الحكم التصويري ، حكم للفرزدق عين فيه بنفس النهج شعر هذا الشاعر ، إذ يروي المدائني « أن ذا الرمة قال للفرزدق : كيف تري هذا الشعر يا أبا فراس ؟ لشعر أنشده ، قال : أري شعرا مثل بعر الصيران ، إن شَمَمْتَ شممت رائحة طيبة ، وإن فَتَتَّ ، فتت عن نتن » [3] .

ويقصد كل من أبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، والفرزدق بأحكامهم التصويريه - أن شعر ذي الرمة يبهر نفس المتلقي بمجرد الاستماع إليه أو تلقيه للمرة الأولي ، ومن ثم يحكم له بالجودة والحسن . ولكن هذا الإحساس الفوري بالإعجاب سرعان ما يذهب أثره ، لأنه شعر سريع الزوال . رغم جماله الظاهري المؤثر ، ولا يتبقي للمتلقي سوي شعر رديء ، هين الشأن ، ضعيف التأثير .

---

(١) السابق ص ٢٢٦

(٢) الموشح ص ٢٢٦

(٣) السابق ص ٢٢٦ . ، الصيران : جمع صيرة وهي الحظيرة للغنم والبقر .

وشعر كهذا - علي أساس هذا الفهم - ذو تأثير عابر - كما قلنا - لا يدوم ، وهذا عيب شديد « لأنه سمة الصناعة الرديئة الزائفة التي لا تحمل شيئا من عناصر الحياة الأصلية ، فترتدي ظاهرا خادعا لا ينطوي إلا علي موات ، ولا يشتمل علي تجربة إنسانية من تجارب الحياة الثرة الخصبة » [1] ولكننا نظلم هذا الشاعر ، وغيره من الشعراء الذين وصف النقاد شعرهم بضعف تأثيره ، وسرعة ذهاب أثره ، وزوال الإحساس به ، وذلك لسببين : الأول هو بقاء هذا النوع من الشعر رغم تعاقب الأجيال ، بما يتضمن من عواطف صادقة ، وأحاسيس حارة تعكس الحزن والفرح ، والحب والكراهية ، والغضب والرضا ، والرفض والقبول ، إلي غير ذلك من العواطف التي تؤثر في المستمع أو المتلقي بعامة . والسبب الثاني يكمن في « بواعث خارج النقد الأدبي الخالص المحايد » [2] وهي حداثة سنه بالنسبة لجرير والفرزدق اللذين يتعصب لهما عدد كبير من العلماء : فقد قال حماد الراوية : « امرؤ اقيس أحسن الجاهلية تشبيها ، وذو الرمة أحسن الإسلام تشبيها ، وما أخر القوم ذكره إلا لحداثة سنة وأنهم حسدوه » [3] علي ما تميز به شعره من خصائص ليست في أشعار أولئك الشعراء الذين انتصر لشعرهم نقادهم المتعصبون لهم .

ومن هذا النوع من النقد الذي يتضمن تعصبا للشعر القديم في مقابل شعر المحدثين قول ابن الأعرابي : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبي نواس وغيره - مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمي به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا » [4] .

---

(١) د / عبد الجبار المطلبي : الشعراء نقادا ، وزارة الثقافة والإعلام - العراق ١٩٨٦ ص ٢١٥

(٢) السابق ص ٢١٦

(٣) البغدادي : خزانة الأدب ١ / ١٠٧

(٤) الموشح ص ١٣٠

وقد وصف أبو عمرو بن العلاء شعر لبيد بن ربيعة ، فقال : « ما أحد أحب إلي شعرا من لبيد بن ربيعة ، لذكره الله عز وجل ، ولإسلامه ، ولذكره الدين والخير ولكن شعره رحي بذر »[1] أي ألة تطحن البذور ، وذلك أنه أراد بهذه الصورة الوصفية أنه يسلم بالقيمة الفنية لشعر هذا الشاعر ، ولكن هذا لا يمنع من لفت الأنظار إلي أن هذا الشعر نفسه ذو إيقاع شديد التأثير علي سمع المتلقي ، حيث تعمد الصيغ المتوالية إلي كسب تعاطفه معه ، وتهيئته لتذوقه والإعجاب به ، وهذا يعني أن ثمة خاصية كشف عنها أبو عمرو عندما نظر في شعر لبيد ، وهي : « مدي فاعلية الإيقاع الأدائي أو اللفظي » .

وإذا كان شعر لبيد - من وجهة نظر أبي عمرو بن العلاء - قد امتلك هذه الخاصية الإيجابية ، فإن شعر النابغة الجعدي في رأي الفرزدق كما يروي الأصمعي قد تضمن الوجه الآخر للإيقاع وهو « سلبيته » ويتضح ذلك في قول الفرزدق واصفا شعر هذا الشاعر فهو : « صاحب خلقان » يكون عنده مطرف بألف وخمار بواف[2] ، و«مثله مثل صاحب الخلقان ، تري عنده ثوب عصب ، وثوب خز ، إلي جانبه سمل كساء »[3] . ويضيف الأصمعي : « وصدق الفرزدق : بينا النابغة في كلام أسهل من الزلازل ، وأشد من الصخر إذلان فذهب ، ثم أنشدنا له . »[4] .

سما لك هم ولم تطرب ... وبت ببث ولم تنصب
وقالت سليمي أري رأسه ... كناصية الفرس الأشهب
أتين علي إخوتي سبعة ... وعدن علي ربعي الأقرب

(١) الموشح ص ٨٩

(٢) السابق ص ٨٢ . صاحب الخلقان . بائع الثياب القديمة . مطرف : ثوب . بواف : بدرهم

(٣) السابق ص ٨٢ . العصب : من أجود برود اليمن . الخز : الحرير . السمل : الخلق من الثياب

(٤) السابق ص ٨٣/٨٢ وديوانه تحقيق/ عبد العزيز رباح، المكتب الإسلامي- بيروت ١٣٨٤هـ

وبعده أبيات ثم يقول بعدها :

فأدخلك الله برد الجنا ن جذلان في مدخل طيب

فلان كلامه ، حتي لو أن أبا الشمقمق قال هذا البيت لكان رديئا ضعيفا » . ويتشابه مع هذا الحكم التصويري حكم آخر للأصمعي نقد فيه كثير عزة ،فقد قال واصفا شعره « إنما كثير صاحب كريج : يبيع الخبط والقطران » (١) .

وتبين هذه النصوص أن أشعار كل من النابغة الجعدي ، وكثير عزة - متفاوته المستوي مختلفة الأداء . فهي قوية في بعضها ، وضعيفة رديئة في بعضها الآخر .

وقد عبرت عن المستوي الجيد لأشعارهما الصيغ الثلاثة : « مطرف بألف » و « ثوب عصب » و «ثوب خز » - فهي تعني أثوابا غالية الثمن يعرف قيمتها المتخصصون والبصراء بالصناعة ، كما عبرت عن هذا المستوي صيغة « القطران » فمعناها : « مادة دهنية طيبة الرائحة تتخذ من بعض أشجار الصنوبر » . فتصوير الجيد من شعرهما علي هذا النحو يفيد أن الرؤية النقدية قد استندت إلي مقياس نقدي ، أراد هؤلاد النقاد تطبيقه علي أشعار الشاعرين وهو : « قوة الأداء الشعري : اللفظي والمعنوي »

وعبرت عن المستوي الضعيف لأشعارهما صيغتا « خمار بواف » و « سمل كساء » فهما تشيران إلي ثوبين : أحدهما رخيص الثمن لتواضع صناعته ، ولقلة إقبال المشترين عليه . والآخر : قديم رث ، لا يتوقف عنده بقصد الشراء أي أحد . لقدمه وتهرئه . كما عبرت عن هذا المستوي صيغة « الخبط » التي هي مجرد « علف للإبل » .

ومن العبارات النقدية الطويلة التي عرضت لأشعار بعض الشعراء بأسلوب المقابلة التصويرية - عبارة « ربيعة بن حذار الأسدي » التي رواها عمر بن شبه (-٢٦٢ هـ)

---

(١) السابق ص ١٩٨ . الكريج : حانوت بالفارسية ، الخبط : من علف الإبل .

عن عبدالله بن محمد بن حكيم الطائي عن خالد بن سعيد بن عمـرو بن سعيد عن أبيـه : قال : تحـاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، وعـبدة بن الطيب ، والمخبل السعدي إلي ربية بن حذار الأسدي في الشعر : أيهم أشعر ؟ فقال للزبرقان : أما انت : فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت يا عمرو : فإن شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر وأما أنت يا مخبل : فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ، وأما أنت يا عبدة : فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر » [1] .

وقد أورد المرزباني رواية أخري لهذا النص عن ابن ابن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد ، عن محمد بن عباد ، عن ابن الكلبي ، قال ابن دريد : وأخبرني عمي - الحسين بن دريد - عن أبيه ، عن ابن الكلبي قال : حدثني خالد بن سعيد عن أبيه قال : وكتب إلي أحمد بن عبد العزيز ، أخبرنا عمر بن شبه ، قال حدثني عبدالله بن محمد الطائي ، قال : حدثنا خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد ، عن أبيه ، قال : اجتمع الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وعبده بن الطيب ، والمخبل التميميون في موضع ، فتناشدوا أشعارهم ، فقال عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فإما أن تخبروني عن أشعاركم ، وإما أن أخبركم . قالوا : أخبرنا . قال : فإني أبدأ بنفسي ، أما شعري فمثل سقاء وكيع [2] ، وغيره من الأسقية أوسع منه ، وأما أنت يا زبرقان : فإنك مررت بجزور منحورة فأخذت من أطايبها وأخابثها ، وأما

---

(١) الموشح ص ٩٦ . برود : جمع برد وهو الثوب المخطط . الحبر : الموشاة . المزادة : راوية يوضع فيها الماء . وينظر الأغاني ٢١ / ٢٠٣ .

(٢) سقاة وكيق : شديد متين ، يصطنعه الرجل فلا يسرب عليه اي لا يقطر .

أنت يا مخبل : فإن شعرك العلاط والعراض » [1] .

فمن البين أن هاتين الروايتين قد أخذتا الوجهة التصويرية أو أسلوب المقابلة التصويرية ، بمعني أن الناقد في كليهما قد عمد إلي تصوير « حيثيات » أو مبررات الحكم ، حيث جعل النتاج الكلي لكل شاعر في مقابل شيء محسوس حيواني أوجمادي . دون أن يستشهد بنماذج لهذا الشاعر أو ذاك . الأمر الذي دفع بعض الدارسين المحدثين إلي وصف هذا النوع من النقد بأنه « حكم غامض مبهم » [2] .

ولكن يمكن للفاحص أن يستخلص عدة خصائص أسلوبية من التصوير الفني لإنتاج هؤلاد الشعراء الذي احتوت عليه الروايتان ذاتا الصيغتين المتقاربتين :

الخاصية الأولي هي : اكتمال الأداء الشعري الذي سمح بذيوع الشعر ونشره وتناقله بين أحياء العرب القريبة والبعيدة . وهذه الخاصية تسليم كلي بتمكن لغة أشعار هؤلاد الشعراء أصدره عبدة بن الطبيب في بدء الرواية الثانية .

والخاصية الثانية هي : النقص في الجودة الفنية ، كما ظهر من وصف ربيعة بن حذار الأسدي لأسلوب شعر الزبرقان ، حيث أنه مثل اللحم النيىء الذي وضع فوق نار مدة غير كافية لإنضاجه ، فلم ينضج فيؤكل ، ولم يعد نيئا لينتفع به أحد ، فهو أسلوب متوسط بين الجودة والرداء .

والخاصية الثالثة هي : قصور أو ضعف التأثير الفني المغلف بغلاف من الصياغة الخلابة الخادعة للبصر ، علي نحو ما تبين من وصف أسلوب شعر عمرو بن الأهتم ، فهو مثل الثياب الجديدة الموشاة بعناصر تبهر بصر المتلقي ، ولكن لن يستمر خداعها له

---

(١) الموشح ص ٩٧ . العلاط علامة خاصة بأعناق الإبل . والعلاط « بكسر العين » صفحة العنق وحبل يجعل في عنق البعير . والعراض : علامة في عرض الفخذ .

(٢) د . أحمد بدوي – أسس النقد الأدبي عند العرب . نهضة مصر ١٩٦٠ ص ٣

وقتا طويلا ، لأنه أسلوب طنان رنان لا طائل تحته ، وسرعان ما يكتشف المتلقي ضعف تأثره .

والخاصية الرابعة هي : الجودة الفنية المتكاملة : كما يظهر من وصف ربيعة في الرواية الأولي لأسلوب شعر عبدة بن الطيب ، بأنه مثل الراوية أو القربة المحكمة الإغلاق الدقيقة الصنع ، فهو أسلوب يتميز بجزالة الصياغة ، وإحكام التركيب ، وتماسك البناء ، تماسكا مبالغا فيه إلي حد يصل بالأسلوب إلي صعوبة استيعابه . والإخفاق في إستخراج معانيه ودلالاته .

الخاصية الخامسة هي : الجمع بين الجودة والرداءة ، أو بين الغث والسمين ، كما رأينا في وصف شعر الزبرقان – في الرواية الثانية – فهو مثل شخص أخذ من النبائح الأطايب التي يأكل منها فتفيده ، والخبائث التي لا يأكل منها ولا تفيد أي أحد . وقد أراد عبدة بن الطبيب بذلك أن أسلوب شعر الزبرقان غير مستقر ، إذ تجده مرة جيدا وأخري رديئا ، نتيجة تباين قدرته علي قول الشعر فهي ليست علي حال واحدة من الجودة .

الخاصية السادسة هي : ثبات الأداء اللغوي الرفيع ، كما أفادت ذلك صيغة عبدة بن الطبيب الوصفية في الرواية الثانية ، التي وصفت شعر المخبل بأنه يشبه العلاط أو السمة الظاهرة في عنق البعير ، إذ هي في أول ما يبدو منه ، والعراض أو السمة الظاهرة التشبيهية علي أن براعة الأداء الشعري محققة في جميع خطوات القصيدة أو مراحلها ، ولهذا جاء ثناء الناقد علي بداية أسلوب الشاعر ونهايته ، علي نحو ما أفادت هذه الصورة .

الخاصية السابعة هي : الموازنة بين أسلوبين ، وقد دلت علي ذلك صيغة عبدة بن الطيب في الرواية الثانية – التي عرض فيها لشعره هو ، وأشعار غيره من الشعراء ، وذلك في تلك الصورة التي جعل فيها شعره يشبه « سقاء وكيع » محكم ، علي حين أن

شعر غيره « أوسع منه » أو أقل إحكاما .

وقد اتبع أسلوب المقابلة التصويرية أيضا ابن رشيق ، وهو بسبيل الكلام عن المكونات الأساسية لمفهوم الشعر ، فقال : « البيت من الشعر كالبيت من الأبنية ، قراره الطبع ، وسَمْكه (بفتح السين) الرواية ، ودعائمه العلم ، وبابه الدربة ، وساكنه المعني ، ولا خير في بيت غير مسكون ، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية ، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية » (١) .

ويقصد ابن رشيق بهذه المقابلة التصويرية ، تحديد أو وصف طبيعة الشعر التي تتكون من مرحلتين متصلتين : المرحلة الأولي : تختص بالقوي اللازمة التي تسبق عملية الإبداع وهي : الطبع ، والرواية ، والدربة ، وقد شبه ابن رشيق هذه القوي بثلاث عناصر مادية يتألف منها المسكن أو البيت الذي يقطن فيه الإنسان ، وتتفاوت هذه القوي في الوظائف والأهمية كما تتفاوت في وظائف وأهمية العناصر المقابلة لها .

فالطبع بوصفه قوة فطرية كامنة ، خلق بها الإنسان ، قادرة علي الخلق والإبداع ، ولكي تتحقق لهذه القوة الفاعلية - لابد من أن تدعمها قوتا « الرواية والدربة » .

أما الرواية فباعتبارها مجموع المعارف والثقافات اللازمة للشاعر تناظر عناصر

---

(١) العمدة ١/١٢١ . القرار : أرض المسكن والمستقر . الطبع : السجية والخليقة والموهبة والطبيعة التي يخلق بها الإنسان . السمك (بفتح السين وسكون الميم) : السقف أو ما هو من أعلي البيت إلي أسفله . الدربة : التمرس بالعمل والكلام وبالشعر . العروض : ميزان الشعر ، لأن به يظهر المتزن من المختل ، وهو الجزء الأخير من الشطر الأول . القافية : آخر كلمة في البيت . أوخي : جمع أخية (بكسر الخاء ، وفتح الياء المشددة) وأخية : حبل مدفون في الأرض مثني فيبرز منه شبه حلقة تشد فيها الدابة . الأخبية : جمع خباء : بيت الصوف أو الشعر . الأمثلة : المقادير .

السقف والحوائط والجدران ، وبما أن هذه العناصر توفر الحماية والأمن لمن تحتويه وتضمه ، فإن « الرواية » رافد جوهري لقوة الطبع ، تنميه وتجعله قادرا علي القول الذي يتسم بالعفوية ، إذ هي المخزون اللغوي والذي يمد « طبع الشاعر » بالمفردات والصيغ وبالمعارف والمعلومات الضرورية للمعني الذي يريد الشاعر التعبير عنه .

، وهذا يعني أن الرواية بالنسبة له غطاء أمن ، واكتفاء ذاتي يحميه من الوقوع في أخطاء يترصدها المعنيون بصناعة الشعر ..

وأما الدربة التي تعني التدريب علي صوغ الشعر ، والاتصال بأشعار الشعراء استماعاً وقراءة ، وإحاطة بها ، فإنها تقابل باب المسكن أو البيت ، فإذا كانت فائدة الباب هي توفير المنفعة للساكن من دخول وخروج وشعور بالأمن والاطمئنان ونحوها ، فإن الدربة تتيح للشاعر الوقوف علي المعني الشعري وجذبه إلي منطقة الطبع ، فيسهل صوغه أو التعبير عنه .

وأما المرحلة الثانية : فهي تختص بعملية تنفيذ صنعة الشعر . وهي ذات جانبين : الأول هو :«التمكن من المعني الجيد » . وهو هدف لا قيمة للشعر بدونه ، ولذلك قابله ابن رشيق أو شبهه بساكن البيت ، فإذا كان الساكن هو الذي يبعث الحياة والحركة في البيت ، ويشيع فيه الخير ، فإن براعة الشعر تتوقف علي وجود المعني الجيد ، والعكس صحيح ، بمعني أن خلو البيت من ساكنه يجرده من الحياة ، كما أن خلو الشعر من المعني الجيد يفقده أهم خصائص الشعر وهي التأثير في المتلقي . والثاني هو : «توفير عنصري الإيقاع » وهما : الأعاريض والقوافي ، فلن يكون ثمة إيقاع أو شعر بغيابهما ، لإنهما لا يقلان أهمية عن أي عنصر من عناصر الشعر ، ولم تكن مقابلة وظيفتيهما بوظيفة الأمثلة والمقادير الخاصة بالأبنية . أو وظيفة الحبال والأوتاد بالنسبة للأخبية – إلا تثبيتا وتأكيدا لدور هذين العنصرين ، فإذا كانت سلامة كل من

البناء والخباء تقتضي وجود العمد والأوتاد ، فإن صحة الشعر رهن بصحة عروضه وسلامة قوافيه من العيوب الفنية .